ابن الرومي

ابن الرومي

فنّه ونفسيّته من خلال شعره

بقلم

ايليّا سليم الحاوي

الاستاذ المساعد لتدريس الادب العربي في كلية
بيروت للبنات ودار المعلمين والمعلمات

منشورات

مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني

بيروت - ص.ب ٢١٧٦ - تلفون ٢٧٩٨٣

طبعة ثانية منقحة ومزيدة

١٩٨٠

مقدمة

درَجَ النُقّاد عادةً على دراسة حياة الشاعر، مما يُفيدونَه من المصادر القديمة وما تَرْفُدهم به بعض الابيات التي يَغتبطون باكتشافها واقتناصها في الديوان، فيكتفون بها او يَقتصرون عليها في دراسة الشاعر وتذوّق شعره او تقييمه.

وهكذا طفق هؤلاء النقّاد يتقصّون الأرقام والتواريخ والأوصاف التي تَعرض لسلوك الشاعر ومأكله ومشرَبه وما الى ذلك، ويستطردون الى تحقيقات خارجية لا تُجدي في تذوّق الشعر بل تُشْبِع نَهَمَهم للتفوّق في الدقائق والتفاصيل التي يَبْتغونها لذاتها وأحياناً كثيرة لغَرابتها ونَدْرَتها. ولقد طالما شهدنا نقاداً يُمعنون في ذكر ما المّوا به عن حياة الشاعر، عن ابيه وجدّه وقبيلته، حتى اذا نَفَذوا الى دراسة شعره أدبروا او اكتفَوا ببعض التعابير والجمل المُحكمة المطلقة التي تصحُ في الشاعر ذاته، كما أنها قد تصحّ في الشعراء جميعاً لأنها تَعني كلّ الاشياء، دون أن تختص بشيء بالذات. فهم لايواجهون شعر الشاعر ويختصّون او يتقيّدون به، وانما يُطلقون عليه ماسبق ان عرفوه وأعدّوه في ذهنهم بجمل مُبْتَسَرة تشبه تَعاويذَ الكُهّان بتَمَطّيها واحتمالها للدلالات العديدة المبهمة. وجملةُ القول في ذلك ان تلك الدراسة الأدبية كانت تتخذ سيرة الشاعر هدفاً نهائياً اخيراً، وتذهب في تعليلها وتمضّغها في كل جهة، بينما تغفل عن التجربة التي عانتها وفاضت بها نفس الشاعر. هؤلاء يتعاظَمونَ الوسيلة ويبالغون في التعرض لها، تعميماً وتخصيصاً، فيَخدعون ويُخدعون بها عن الجوهر والروح. ان السيرة ليست سوى مقدّمة او اضواء نَخلعها على القصيدة لا قيمة لها، إلا بما تُنيره لنا من ظلمة التجربة دون ما تُطلعنا عليه من معلومات او تَكشِفُهُ لنا من حوادث أحرى أن تتضمّنها القصة او الحكاية التي تقتصر على غاية التشويق والامتاع. اما في

الشعر فان السّيرة مطيّة للتجربة ، لا قيمة لما تذكره الا بما يعلنه او يوضحه من الجذور والخفايا النفسيّة . فالدراسة الفنيّة تتوسل بها وتعرضُ لها حيناً بعد حين بقدر ما يضطرّها الفهم والتذوّق . لذلك كان أحرى ان تَرِدَ كلما اقتضتها الدراسة الداخلية للشعر ، فتبقى وسيلة للفهم والايضاح ، وليست غاية للقصص والاغراء والتضليل او التهرّب . وكذلك مميزات العصر ، فهي كسيرة الشاعر ، لا قيمة لها ولا جدوى منها ، الا اذا اضطُرِرْنا لها للتعمّق بالاسباب والجذور النفسية والفنية . ان التصدي لدراسة العصر — دراسة مطلقة لاترتبط بمميزات الشاعر او تقتصر عليه — هو في الواقع خروج عن ضرورة الدراسة وانشغال بعبث التدقيق والمقابلة في امور تَصْدُفَ بالناقد عن تحليل الشعر الى التلهّي بخصائص تُعدم المهمة الفنية للنقد .

اذن ان دراسة الشاعر هي قبلَ كل شيء في شعره ، امّا سيرته وعصره وما الى ذلك ، فانها تَرفِدُ الذائقة الفنيّة وتُخصبُها ، لكنها لا ينبغي ان تستبدّ بها وتحوّلها عن الشعر الى الشاعر او العصر ، مما يغلب في الدراسات الأدبيّة عامّة .

هذه بعض المحاذير المألوفة التي شوّهت الدراسة العربية وزوّرَتها ، آلينا على نفسنا أن نتجنّبها وان نتصدّى للنصّ بالذات ، مُستطلعين المعاني المستَتِرة وراء المعنى اللغَويّ الظاهر ، متقصّين العِلَل والمضاعفات النفسيّة ، فضلاً عن التيّارات الثقافيّة التي تفاعلت في إخصاب التجربة وإفاضتها . كما اننا حاولنا ان نقيّم قصائده وفقاً للأصول الفنيّة وروح الشعر السويّ الصّرف ، متجاوزين عن الاسلوب البَلاغي الذي يُميتُ القصيدة فيما يحاول ان يُقَنّنَها بأشكال الاستعارة والمجاز وما الى ذلك من مظاهر البلاغة الموّات . ولقد اهتممنا اشدّ الاهتمام بالقضاء على تلك الطريقة الكاذبة التي ماانفك يتوسّل بها النقّاد ويعتمدها المصحّحونَ في الامتحانات الرسميّة عندما يفصلون المعنى عن اللفظ ويُباعدون بينهما ، كأنهما طَرفان غريبان اورقمان في مَعادَلة علميّة لا جُذوة فيها ولا حرارة او يقين . لامجال للاطالة بذكر هذا الأمر

فقد اصبح بديهياً في سوية النقد الموضوعي المثقّف ، وقد اسهبنا بعَرضه وتحليله في احدى مقالاتنا التي نشرت في مجلة الاديب (عدد ت٢ سنة ١٩٥٧) وانما نكتفي هنا بالاشارة الى أنّ تفصيل التجربة بين لفظ ومعنى-إنما يُضعفُها أو بالأحرى يُميتُها، فلا يقعُ القارىء إلا على أشلائها الباردة. كما ان هذه الطريقة تبتعد عن روح الشعر والمشاركة النفسيّة الداخليّة وتكتفي بالمشاهدة اللامبالية التي لا تعاني مأساة الشاعر او تجربته .

وهكذا فان هذه الدراسة تتناولُ النصّ الشعريّ كأساسٍ لها ومن ثمّة تتوسّل بالمصادر والمعلومات الخارجيّة الأخرى لِتُنيرَهُ او تتعمّقه وفقاً لوضوحه اوالتباسِه بذاته .لذلك كان من الطبيعي ان ينتمي الشاعر الى خصائص قد تختلف وربما تتناقض باختلاف القصيدة التي نواجهها ، اذ ليس همنا ان نُنشيء نظريّات مُطلَقة حاسمة أو قوانين صارمة ، تستبدّ بالتجزبة الشعريّة القلقة ، المتحولة المتناقضة ، وانما اكتفينا بتقرير ما نشهده في النصّ ذاته ، نربطه او لا نربطه بما شهدناه في سائر النصوص بالنسبة لتردُّدِه وشيوعه أو شذوذه وندرتِه في شعره .

وأيّاً ما كانت الحال ، فليس هَدَفُنا من هذه الدراسة ان نُقَنّن الشاعر وننتظمَه بجُمَل من الاحكام العامة الزائفة ، وانما جعلنا همنا مشاركته في تجربته والاطّلاع على الاعماق والابعاد النفسيّة التي نفذ اليها واظهار قيمة شعره بالنسبة لسواه من الشعراء وبالنسبة لقيمة الشعر المُطلق الصرف . لهذا فقد تناقضَتْ احياناً كثيرة ملاحظاتُنا لكنه لبث عَبرَ اختلافها وتناقضها كثيرٌ من التوحُّد والتشابه وربما التعميم .

اما تبويب الكتاب وفقاً لتصنيف الانواع الادبية من هجاء ورثاء ومدح ووصف وما الى ذلك ، فانّ ذلك لا يَعْدو ان يكون تنظيماً خارجياً ، شكلياً ، لتسهيل الدراسة دون ان نستدل به على واقع فني او نفسي حاسم . ذلك ان ابن الرومي يكاد لا يتقيّد بهذه الانواع بل على العكس، فانه لا ينفكُ ينقضُها ويستطرد منها ، حتى لتُصبح بعض قصائده عقدةً هائلة من تشابك

تلك الانواع. فمن الضروري ان يُنظر للتقسيم الذي درجنا عليه في هذا الشأن، كأنه عنوان كبير لاحد الانواع الادبية، تنطوي دونه عناوينُ صغيرة أخرى لسائر الانواع جميعاً. فان القارىء يمكنه ان يطلع على الوصف مثلاً، في الباب المخصّص له، كما يمكنه ان يطّلع عليه في سائر الابواب، مدحاً او رثاء، او غزلاً، او هجاء. وربما شهدنا الانواع الادبية المتناقضة تَجتمع في باب واحد او في قصيدة واحدة. لذلك كان من الضروري لمن اراد ان يستوفي بحثنا في احد الانواع ان لا يكتفي بما اثبتناه في الباب المخصّص له بل ينبغي ان يستشيرَ سائر الابواب التي قد يَعرض فيها قليلٌ او كثيرٌ منه.

وبعد، فهذه مُحاولة جديدة لدراسة الشعر دراسة موضوعية من خلال قصائد الشاعر والقيم المطلقة للفن في سبيل تذوّقه والمشاركة بالنشوة الفنية. وهي تناقض ما درجت عليه الدراسات الادبية سابقاً من تخصُّص بسيرة الشاعر وعصره واقتصار على المظاهر والمميزات الخارجية التي تستنفدُ هَمّ الدراسة، فندرك تفاصيل سيرته وعصره بينما يبقى شعره طلَسماً نشاهده من الخارج دون ان نَلِج الى اعماقه، فنتحسّس تجاربه او نُقدّرَ قيمته الفنية. ولسنا ندّعي انها استوفت دراسة ابن الرومي جميعاً، وانما ألممنا بكثير من الوجوه المُغلقة البكر التي قد تُؤدّي صورة صادقة، قريبة من الكمال اذا اجتمعت مع سائر الدراسات التي سَلَفَتْ عن ابن الرومي ككتاب العقّاد ومقالات المازني وما الى ذلك.

الواقع ان العقّاد قد استوفى، غالباً، ما يمكن ان يُقال في سيرته. ولا مجال للاجتهاد في ذلك الا اذا اردنا ان نُسْرِف ونتعامى عن الجوهر بالعَرَض. لذلك كان من الضروري ان يتمعّن القارىء بكتاب العقّاد، اذا كان يودُ ان يتقصّى في حياة ابن الرومي.

ا. س. ح.

ابن الرّومي وسيرته

ولد ابو الحسن العباس بن جريج الرّومي في العشرين من شهر تموز عام ٨٣٥ م ، من أب روميّ وأمّ فارسيّة كما يُستدَلُ من قوله :

نَحْنُ بَنُو اليُونانِ قومٌ لنا حِجىً ومَجْدٌ وعِيدَانٌ صِلابُ المَعَاجِمِ

أو قولــه :

كَيْفَ أُغْضِي على الدّنيّةِ والفُرْ سُ خُؤُولي والرّومُ أعْمَــامي (١)

ولم يكد الشاعر يعرف والده إذ يبدو أنه تُوُفّي وهو طفل . وهو ، كذلك لم يشر إليه في شعره ولم يَقِفْ منه موقفا نفسيّاً خاصّاً ، كما هو شأن المُتَنَبي . ولعل واقعه النفسيّ وما طُبِع عليه من ميل الى الاغراق في همومه الفردية الذاتية حالا بينه وبين وُلُوج عقدة الأصل وشرف المَحْتد إلى وعيه أو لا وعيه لتغدو ، فيما بعد ، سبيلا له إلى التنازع الوجدانيّ المرير والشعور بالنّقمة والعاهة في بني عصره. ولعل الباعث الاعمق لنزوعه منزعا سلبيا في هذا الصدد يرتبط من موقفه العام من معاني الحياة وقيمها . فهو لم يَعْتنق الفروسيّة كمثال للسلوك ، كي يَغْتبط بما يحقّق من شروطها ، كما أنه لم ينْتم إلى اصل عربيّ ليَنْساق بدافعه الى التفاخر على غرار الشّعراء العرب . ولو انتحى نحواً مثاليّاً أو اتّخذ موقفا إيجابياً من الحياة كالمُتَنَبي ، أو لو أنه اصيب بعاهة في أصله كأبي النّوّاس ، لنزَع إلى نوع من العُنْجهيّة المُتَجَهّمة ، القانطة ، يتّقي

---

(١) استخرج العقاد من ديوان ابن الرومي الأبيات التي تحدث فيها عن أصله ، وهي ، غالباً ، تكرر معنى واحداً في قصائد متباينة وظروف متعددة ، ويوسع القارىء أن يعود إليها في صفحة ٨٤ – من كتاب العقاد .

بها عاهة الأصل ، أو لتردّى في نوع من الاباحيّة السّادية المُطْلقة كأبي نُوَاس مُتَنكرا للفضياة والقيم ، ليُزيل من خلال ذلك مايعانيه من ضيم وعار في بيئته يَنْجُب فيها الفتى بأصله وَيَتَعاظم به غاية التَعَاظم . وإذا كانت عـاهـة الأصل مصدراً للسّويداء في ضمير ابـي نوَاس والمتنبّي ، وبـاعثا عميقا من بواعث اللّعنة والوتر في شعرهما ، فان وجدان ابن الرومي خلا من هذه الرّيبة ، ولم يكد يَشْخص في شعره أيّ نوع من التردُد والتنازع بشأنها . ولعله غفل عنها لانشغاله بما حَفِلَتْ به حياته من فواجع عَفّت على مادونها ولبثت مُقيمة في خاطره كركام من الاشلاء .

ولعلّ أخاه الاكبر محمّدا قام مقام والده في نفسه ، يتعهّدُه في مطلع شبابه ويقوم على امره ، مما حال بينه وبين الشّعور الفاجع باليُتْم في حداثته ، وان كان موته سيَغْدو سببا لتردّيه تحت وطأة الأحزان الكثيرة التي تداولته ، فيما ألَمّت به مُلّمات الموت ، الواحدة اثر الاخرى .

ولقد اجمعت كتب الادب ، كذلك على ان ابن الرومي رزق ثلاثة أبناء اختطفهم الموت جميعا فضلا عن زوجه ، ممّا طبعه بطبائع التفجّع والنّواح تُسْفر أو تَسْتَتِر في شعره ، باثّةً فيه ايقاعا قانطا كايقاع النّدب ، مائلة به الى السّويداء وسوْء الظن بحكمة القدر والحياة والطّبيعة .

ومهما يكن من أمره ذاك ، فان فواجع الموت كان يَتَضَاعَفُ وقعها في نفسه ، لِمَا كان يلازمه من فقر واملاق ، في حَقَبَات طويلة من عُمْره ، لان ابن الرومي لم يُوَفّق الى التكسُب والحَظْوة ، عند ذوي المال والسّلطة لعقدة من البواعث ، كان أهمّها نزوعه منزعا نفسياً رفنيّاً ، يُعارض عمود الشّعر المَأثور في المدح والحافَه بالطّلب وترجّحه فيه بين الشّكوى والتذمّر والتّأنيب الدّاني دنّوا حميماً من التقريع ، كما سنتحقّق من ذلك ، فيمـا بعد . لقد كان ابن الرومي شاعرا داخليّاً ، اذا جاز التعبير ، يُغْرق في تأمُل نفسه وَيَتَنَصّت الى هواجسها ، مُنْعما بالتعبير عما يطرأ عليها من هموم ، وما يتداولها من أفْراح وأتْراح . واذا ماحدّق في العالم الخارجي ،

عرّاه بالوجد والانفعال أو تلهّى وتروّض بمُحاكاته وتقليده ، واقفاً منه موقفا شعريا ، عاجزا عن التكيّف وفقا لضرورته ومقتضياته ، فاشلا فيه بمُباراة الآخرين في اكتساب المال والرزق .

ولقد انفق ابن الرومي معظم أيامه في بغداد عاصمة العلم والمُجون واللّهو جميعا ، في ذلك العصر ، يعيش فيها مَغْموماً ، ويلازمها ولا يرى لنفسه سبيلا الى مغادرتها ، لانه لم يكن من ذوي الطموح والجرأة ، ليرحل في طلب الرزق والعلى . لقد كان قعيدا في تلك المدينة ، يمنعه عن هجرها خوف فاجع من السّفر تلازمه فيه فكرة اضطهاد الطبيعة له وتربّص غول الاسفار به ليغتاله ويُودي بحياته .

وهو اذ لازم بغداد ، لم يركن إليها قط ، ولم يَقُمْ فيها عن اختيار ، بل عن اضطرار وقسر . ولم يكن لابن الرومي من المال مايوفرُ له فيها طيب المقام ، اذا كانت تغلو حينا أثمان الحاجات فيها ويَعْسر عليه تأمين كفافه :

سَقَى اللهُ بَغْدَادَ مِنْ جَنّةٍ غَدَتْ لِلْوَرَى نُزْهَةَ الأَنْفُسِ
عَلى أنّها مُنْيَةُ المُوسَرِينَ ، ولكنّها حَسْرَةُ المُفْلِسِ

ولم يكن ابن الرومي من طالبي الكَفَاف في الحياة ، بل من مُدْمني المتعة والشهوة واللهو ، مما جعله يضيق بتحصيل ما يكفيه مؤونة العيش . وقد ذُكر أنه كان يَمْتلك ضيعة ودارين ورثهما عن والده ، لكنها لم تؤمنه عن السؤال ، اذ لم تكن ضيعته تغلّ له غلالاً وافرة ، بل لاتزال تُلْفيه مُتَضَجّرا من أمرها ، مُسْتَعْفياً من خراجها ، كما أنّ دَارَيْه غُصبتا عنه ، غصبه الأولى تاجر مُوسر (١) والثانية امرأة بغت عليه فيها . وإنما آلينا ألا نَغفل ذكر أملاكه

(١) لابن الرومي قصيدة في التظلم من أمر التاجر ، رفعها إلى سليمان بن عبد الله وفيها يقول :

١ – ولي وطن آليت ألا أبيعه وألا أرى غيري له الدهر مالكا

لنَنْقض ما جرى عليه بعضهم في شأنها ، اذ توهموها اداة ثراء وسبيلا للسعادة ، فيما هي الحقت به شى لانواع الاذى وساقته الى الشّعور بالخسارة والغبن ، مُضَاعفة من شعوره بسوء الظّنّ بالنّاس وانْتِفاء العدالة فيهم . وانّ الباحث ليقع على نوع من التشابه فيما بين موت اولاد ابن الرومي وخسارته لاملاكه ، اذ جعلاه يفطن الى معنى الخسارة الكبرى ، كأن القدر لم يدعه ينعم حينا الا لينتزعه من نعيمه انتزاعا فاجعا . وقد يكون ايسر للمرء ان يُلْفي نفسه عاطلا من كل خير ، على ان ينال خيرا فيفقدَه مخلفّا في نفسه فجيعة الثكل بالاولاد والخلع عن ملك فيه رزقه أروده . واذ كان ابن الرومي من ذوي الأفكار الثابتة ، المُتَآكلة بذاتها ، فقد كان دائم النعي ، لايَتَعَزّى في وحشته بعزاء عمّا افتقده من وُلْدٍ أو نَزع عنه من أمْلاك ، بلى تجده ، كان الزمن ثابت في نفسه لا يُعَفّي على ثاراتها ، ولا يعوّضه عن خسائرها . ولا بدع أن يغدو شعره ، إثر ذلك ، شعر الوتر والنقمة والفشل والخراب .

---

٢ – عهدت به شرخ الشباب ونعمة كنعمة قوم أصبحوا في ظلالكا
٣ – وحبب أوطان الرجال اليهم مآرب قضاها الشباب هنالكا
٤ – فقد ألفته النفس حتى كأنه لها جسد ان بان غودر هالكا
٥ – وقد ضامني فيه لئيم وعزني وها أنا منه معصم بحبالكا
٦ – وأحدث أحداثاً أضرت بمنزلي يريع إلى بيعيه مني المسالكا
٧ – وراغمني فيما أتى من ظلامتي وقال لي أجهد فيه جهد احتيالكا
٨ – فما هو إلا نظمك الشعر سادراً وما الشعر إلا ضلة من ضلالكا
٩ – مقالة وغد مثله قال مثلها وما زال قوالا خلاف مقالكا
١٠ – صدوفاً عن الخيرات لا يرأم العلا ولا يحتذي في صالح بمثالكا
١١ – من القوم لا يرعون حقاً لشاعر ولا تقتدي أفعالهم بفعالكا
١٢ – يعيرني سؤل الملوك ولم يكن بعار على الأحرار مثل سؤالكا
١٣ – مدلا بمال لم يصبه بحلة وحق جلال الله ثم جلالكا
١٤ – وحسبي عن اثم الألية زاجر بما امتلأت عيني به من جمالكا
١٥ – واني وان أضحى مدلا بماله لآمل أن ألقى مدلا بمالكا
١٦ – فإن أخطأني من يمينك نعمة فهلا تخطته نقمة من شمالكا

الأأن ماحل به ، جميعا، لم يكن لينحني عليه بما يروى فيه من املاق ووحشة لولا معاناته الدائمة لعاهات النّفس والجسد . فقد مني بالطّيرة والايمان الغامض بالنّحس والسعد ، يحلان في نفسه محل يقين ، ويثيران فيها كوامن الشؤم والفشل . وفي كتب الأدب نوادر له لاتحصى في هذا الشأن ، يستطلعها من ذهنه الشّاحب المريض ، ويبتدع بها صورة عامة للشقاء المزمع ان يحلّ به والشرور التي ستساوره . ولعله كان يتحرّى عن ذلك تحريا ، ويتعمده تعمدا ، مسوقا بنوع من الالحاد العام بقيم الخير وحقيقة السعادة وامكانية الفوز والنجاح في العالم . فكل مايحدق به شرٌ أو شؤم مُتَربّص او سبيل للفِخاخ المَنْصوبة لاغتياله او للايقاع به . ويبدو أن الشّاعر كان يصدر في ذلك عن مذهب عام كما نرى فيما رواه عنه صاحب زهر الآداب ، اذ قال ان ابن الرومي كـــان

« مفرط الطيرة شديد الغلو فيها . قال عبد الله بن المسيب : وكان يحتج لها ويقول ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب الفأل ويكره الطيرة أفترى كان يتفاءل بالشيء ولا يتطير من ضده ؟ ويقول ان النبي صلى الله عليه وسلم مر برجل وهو يرحل ناقة ويقول يا ملعونة . فقال : لا يصحبنا ملعون . وان علياً رضي الله عنه كان لا يغزو غزاة والقمر في العقرب ، ويزعم أن الطيرة موجودة في الطباع قائمة فيها ، وأن بعض الناس هي في طباعهم أظهر منها في بعض ، وأن الأكثر في الناس إذا لقي ما يكرهه قال : عِل وجه من أصبحت اليوم . فدخل علينا يوم مهرجان سنة ثمان وسبعين ولد أهدى إلي عدة من جواري القيان ، وكانت فيهن صبية حولاء وعجوز في إحدى عينيها نكتة ، فتطير من ذلك ولم يظهر لي أمره وأقام باقي يومه ، فلما كان بعد مدة يسيرة سقطت لي ابنة من بعض السطوح . وجفاه القاسم بن عبيد الله فجعل سبب ذينك المغنيين المغنيتين وكتب إلى :

أيهـــا المحْتفي بحولِ وعُـــورِ ... أينَ كانَتْ مِنْكَ الوُجُوهُ الحِسانُ؟
قد لَعَمْري رَكِبْتَ أمْراً مُهيناً، ... ساءني فيكَ أيّهـــا الخَلَصانُ
فَتَحُكَ المَهْرَجانَ بالحُولِ والعُو ... رِ أذاناً ما أعْقَبَ المَهْرَجـــانُ
كانَ من ذاكَ فقْدُكَ ابْنَتُكَ الحرّ ... ةُ ، مصْبوغَةً بها الأكْفَانُ
وَتجافي مُؤمّلٌ لي جَليـــلٌ ... لَجّ فيهِ الجَفَاءُ والهُجْرانُ

(وكان أبو الحسن علي بن سليمان الأخفش غلام أبي العباس المبرد في عصر الرومي شاباً مترفاً ومليحاً مستظرفاً ، وكان يعبث به فيأتيه بسحر فيقرع الباب ، فيقال له من ؟ فيقول قولوا لأبي الحسن مرة بن حنظلة ، فيتطير لقوله ويقيم الأيام لا يخرج من داره ، وذلك كان سبب هجائه إياه .. فاعتذر اليه وتشفع عنده بجماعة من أهل بغداد ، وكان الأخفش أكثر الناس إخواناً فقبل عذره ومدحه بقصيدته التي يقول فيها :

ذكر الاخفش القديم فقلنا ان للأخفش الحديث لفضلا

وجاء كذلك «حدثني أبو علي قال : كان علي بن العباس الرومي لا يدع التطير والتفاؤل في جميع حركاته وتصرفه وكان علي بن سليمان الأخفش قد أولع باعتراضه في مخارجه فيما يتطير به ، فربما صرفه بذلك عن وجهه ، وربما دق عليه الباب ، فإذا قال من أنت ؟ قال الشؤم والبلاء ! فلا يبرح علي بن العباس يوم ذاك . فلما شق عليه ذلك هجاه ، فأقذع في هجائه ، فكان الأخفش يستعمل حفظ هجائه ، ثم يمليه فيما يملي من الأخبار والأشعار على أصحابه ، فلما رأى علي بن العباس أن الأخفش لا يألم لهجائه أقصر عنه» .

ويقول صاحب العمدة في هذه الوقائع بينه وبين الأخفش :

«وقد مزقه بالهجاء كل ممزق وجعله مثلة بين أصحابه . على أن الأخفش كان يتجلد عليه ويظهر قلة المبالاة به وهيهات وقد وسمه وسمة الدهر وسامه سوم الخسف والقهر» .

والأقوال في طيرة ابن الرومي كثيرة منها ما استطرد إلى ذكره صاحب زهر الآداب حيث قال بعيد ما أسلفنا نقله :

«ولا بن الرومي في الأخفش إفحاش عفت الكتب عنه ، قال علي بن ابراهيم كاتب مسروق البلخي : كنت بداري جالساً ، فإذا حجارة سقطت بالقرب مني ، فبادرت هارباً وأمرت الغلام بالصعود إلى السطح والنظر إلى كل ناحية ، من أين تأتينا الحجارة ، فقال : امرأة من دار ابن الرومي الشاعر قد صاحت ، وقالت اتقوا الله فينا واسقونا جرة ماء ، وإلا هلكنا ، فقد مات من عندنا عطشاً . فتقدمت إلى امرأة عندنا ذات عقل ومعرفة أن تصعد إليها وتخاطبها ، ففعلت وبادرت بالجرة واتبعتها شيئاً من المأكولات ثم عادت إلي فقالت : ذكرت المرأة أن الباب عليها مقفل من ثلاث بسبب طيرة ابن الرومي ، وذلك أنه يلبس ثيابه كل يوم ويتعوذ ، ثم يصير إلى الباب والمفتاح معه ، فيضع عينه على ثقب في خشب الباب فتقع عينه على جار له كان نازلا بإزائه ، وكان أحدب يقعد كل يوم على بابه ، فإذا نظر اليه رجع وخلع ثيابه وقال لا يفتح أحد الباب . فعجبت لحديثها ، وبعثت بخادم كان لي يعرفه ، فأمرته بأن يجلس بإزائه ، وكانت العين تميل اليه ، وتقدمت إلى بعض أعواني أن يدعوا الجار الأحدب ، فلما حضر عندي أرسلت وراءه غلامي لينهض إلى ابن الرومي ويستدعيه الحضور ، فإني لجالس ومعي الأحدب ، إذ وافى أبو حذيفة الطرسوسي ومعه برذعة الموسوسين صاحب المعتمد ، ودخل ابن الرومي فلما تخطى عتبة باب الصحن ، عثر

فانقطع شسع نعله ، فدخل مذعوراً ، وكان إذا فاجأه الناظر رأى منه منظراً يدل على تغير حال . فدخل وهو لا يرى جاره المتطير منه ، فقلت له : يا أبا الحسن أيكون شيء في خروجك أحسن من مخاطبتك للخادم ونظرك إلى وجهه الجميل ؟ فقال : قد لحقني ما رأيت من العثرة ، لأني فكرت أن به عاهة وهي قطع أنثييه ! .

ولا مجال للإطالة في بحث هذه النوادر وإظهار مدى تأثيرها على منحاه النفسي والفني في الشعر إذ أننا سنتصدى إليها فيما بعد ، وإنما نكتفي منها الآن بالقول ان صاحبها لم يكن معداً للعيش عيشاً متكافئاً كالآخرين ، إذ لم يكن يتحلى برحابة الصدر وعظم العقل والحس المنطقي الواقعي الذي يدعه ينجب فيمن يحيطون به وينافسونه ويزرون عليه .

فلو عرضنا إلى النادرة الاولى التي احتج فيها باقوال النبي واستطلع فيها الشؤم من عيني احدى الصبايا الحولاء واحدى العجائز التي في عينها نكتة واقامته لعلاقة يقينية بينهما وبينما فجع به صاحبهما من سقوط ابنته عن بعض السطوح وجفاء القاسم بن عبيد الله له ، بعد مواصلة ، لو عرضنا لتلك النادرة لتبين لنا ان الشاعر كان يستدل دلالات غريبة يفسر بها ما قد يخفي عليه من ويلات . ولعله في سويدائه واغراقه بالتساؤل ، كان يتحرّى عن حكمة الحياة من المصائب التي تنزلها بابنائها ، واذ تعذر عليه تفسيرها وتأدية تأويل لها وفقا لسويّة العقل والمنطق ، انبرى لها بهذا التفسير الدّاني إلى معتقدات الدهماء والعامة . ولقد كان ابن الرومي طُلْعَةً ، يُنْفق أيّامه في استطلاع معنى الاشياء وغايتها واقفا من الوجود موقفا استفساريا ، يلحظ فيه كل هنة ويتعرّض لكل عارض . واذ خذله الايمان بالله والحياة وحكمتها ، تنكر لكل عناية ودراية ، وجعل يتشبه له في الاشياء مطلع النّحس والنعي والخسارة .

وهكذا فقد كانت الطّيرة تجسيداً لموقفه العام من الحياة ولعجزه عن الايمان بجدواها وتعقّلها ونظامها. فالعين الحولاء أو ذات النكتة، إنما هي رمز للنّقص والعاهة في العالم ، وهي اذ تطالعه ، انما تنذره بان خطبا ما سيلمُّ به او أنه سيصاب بضرب من ضروب النّقص والخسارة ، لانها هي بالذات تولدت عنهما . وحيثما حلّت فانها تمهد لحلولهما . وهكذا فان الوجود كان بالنسبة

لابن الرومي رهين العاهة والمصيبة ، تراودانه وتطيفان به وتطالعانه، فجأة، في كل مظهر او لفظ او حركة . .

اما النّادرة التي تواقع فيها مع الاخفش ، فهي أعمق دلالة على تردّيــه ترديا مضنيا، مريضا، قانطا في هـوّة اليأس والتطير. فهو لم يعد يتطيّر من مظاهر الشؤم والعاهة ، بل من اسمهما ، يكاد لا يسمع الأخفش طارقا على بابه ، مدعيا انه الشؤم والبلاء ، حتى يقضي في منزله ، محتميا فيه منهما ، قاطعا رزقه ورزق عياله ، منقطعا عن النزول الى ساح الحياة والتعرض لها والعيش في ارجائها . ويخيل الينا ، في الواقع ، ان نفس ابن الرومي تشوهّت وَوَهَتْ فيهاحدودالمنطق، فشوهمعها روضة الحياةواستطلع فيها كلّ غدر وشؤمواستكشف خلالها كلّ نذير بالهلاك قد لا يلقي فيه سواه اية دلالة او اي سوء مزمع عتيد .

واذا كان لكل شر وجه من وجوه الخير ، فقد لقي ابن الرومي خيرا من طيرته وتشاؤمه في شعره ، بالرغم من انه لقي منهما كل شّر في عيشه. لقد كان نزوعه الى استطلاع المعاني المستتره في الاشياء وما وراءها سبيلا له الى ادراك ما لم يدركه سواه من احوال النفس ، نافذا بذلك الى اصقاع تلتبس فيها حدود اليقين والخيال ، مشاهدا الاشياء وكأنها طيف ناء ، شفّاف ، لا تقع عليه عين الناس ولا تفطن له عقولهم . كما ان دأبه على التفرّس بالعاهات ومعالم النقص غذّى قريحته بالصور والمعاني المنكرة التي تنبري لنا كالحة ، موبقة ، سادية في اهاجيه . وفي النماذج الهجائية التي سنعرض لها بالنقد والتحليل ستتراءى لنا معالم طيرته وتملّيه من صور القبح والتشويه وكأنها اللّون الحالك السواد الدائم لكل لوحة يرسمها لأصحاب النقص والعاهة .

ولقد رأينا ان نسوق الى القارئ في هذه العجالة الصورة التي رسمها العقاد لابن الرومي والتي افادها من أبيات ومقاطع وصف بها الشاعر نفسه . قال العقاد :

كان ابن الرومي صغير الرأس ، أبيض الوجه ، يخالط لونه شحوب في بعض الأحيان وتغير ، ساهم النظرة ، بادياً عليه وجوم وحيرة ، وكان نحيلا بين العصبية في نحوله ، أقرب إلى الطول أو طويلا غير مفرط ، كث اللحية ، أصلع ، بادر إليه الصلع والشيب في شبابه ، وأدركته الشيخوخة

الباكرة ، فاعتل جسمه وضعف نظره وسمعه ، ولم يكن قط قوي البنية في شباب ولا شيخوخة ، ولكنه كان يحس القوة اليسيرة في الحين بعد الحين ، كما يحس غيره العلل والسقام ، فكان إذا مشى اختلج في مشيته ، ولاح للناظر كأنه يدور على نفسه أو يغربل ، لاختلال أعصابه واضطراب أعضائه . وكان على حظ من وسامة الطلعة في شبابه ، معتدل القسمات ، لا يأخذ الناظر بعيب بارز ، ولا حسنة بارزة في صفحة وجهه . أما في الشيخوخة ، فقد تبدلت ملامحه وتقوس ظهره ولحق به ما لا بد أن يلحق بمثله من تغيير السقام والهموم .

يهمنا من هذه الصورة التي رصد العقاد لكل ملمح من ملامحها بيتا او ابياتاً توكد ماذهب اليه فيها [1] يهمنا ماتشير اليه وتثبته من عاهات جسدية كان لها انعكاسها الظاهر والمضمر في واقعه النفسي . لقد كان ابن الرومي يشكو علة غامضة في جسده ، جعلته يترجح ، ابدا ، بين العافية والسقم يبدو متهالكاً عيّاً ، مخذولا ، لا يطيق الجهد والكفاح ، يجزع للهنة اليسيرة التي تعترضه كاان الشيخوخة عاجلته ، وهو حدث ، فغدا ينعى الشباب ويبكيه ويتفجع عليه ويقيم له مناحة يجمع له فيها معاني الرثاء والموت . كما ان مشيته بدتْ ، مُغَربلة متفككة ، مهزوزة لاختلال في اعصابه ، وربما انعكس ذلك من نفسه على واقع الحياة ، فتراءت له مختلّةً ، ذات عاهة ونقص ، كأن نصيبه منها رمز لنصيبها من ذاتها . ومن يتملّ في شعره ، يتحقّق له انه يصدر عن شعور عام بالتخاذل والفشل وعن نظرة عامة قانطة تجلّل العالم بالسواد ، وتنعى عليه سقمه وقبحه وتشوهه . انه عالم العقاب والغلظة والسأم والوتر والفتك . وقد كان الشاعر المهزوم الاكبر في ساحه .

وانما اردنا ان نقدم بهذه المقدمة لنطلع القارئ على الاحداث الناتئة التي شغل بها في حياته والطبائع التي اثرت عنه وطبع عليها ، لنلج منها الى واقعه النفسي وتجاربه الفنية ، ولم نشأ ان ننصرف انصرافا تاريخيا دأب عليه معظم دارسي الادب ، وانما آثرنا ان نوفي الى حقيقته النفسية والفنية من خلال نصوص شعرية مقتطفة من ديوانه .

(١) العقاد : ص ٥٤ .

الوَصْفُ

قد يَسْهل الكَلام على الوصف في شعر ابن الرومي ، لانه اختصّ به واعتمده ، وربما اقْتَصر عليه في قصائده كافّة . لكنه في الآن ذاته ،يَصْعُب تحديده ويَتَعقّد تَعَقّد نفس ناظمه . فهو كجمال « وحيد » سهل صعب .

يبدو ابن الرومي ، حيناً ، مُصَوّرا **بحدَقَته دون قلبه وشعوره** ، فكأنه امروءُ القَيس في عصر حَضَري . **فهو لا يرى الوَصْف تخيّلا نفسيّاً** يَعْبُرُ ممّا يُرى الى ما يَتَراءى وراءه ، وإنّما يُمْعن با لتَحْديق والتعمّق بالمرئيّ نفسه حتّى يَسْتعيد ظاهرتَه استعادةً دقيقة ، كُلّية ، تبدو في الخاطر من خلال القصيدة ، كما تُرَى في العَيْن المُجَرّدة عبر الواقع . واحيانا أخرى يَشْتمل الوصف في شعره على حرارة ويقين ، فلا يعود نَسْخاً للواقع بل **يَفيض فيضاً من اعماق الرُؤْيا والذّهول** ، فكأنّما هو شاعر رومنطيقيّ ، تلاشت ذاتُه او انحلّت واتّحدت بالطبيعة والوجود . ان الظاهرة التى يصفها لا تظلّ واقعا شائعا مُتَعارَفاً عليه ، بل تُصْبح رمزا لوُجود مُغْلَق ، ينبغى ان يفضّه ويُفْتَحَ على أسراره . ان الوصف في شعر ابن الرومي يمتزج بين هذين النوعين : وصف نقليّ تقريريّ ، ووصف آخر نفسي تأليفيّ ذاهل ، وقد يدنوان الى نوعين آخرين سنَلمّ بهما فيما يعْقُبُ من الصفحات

وأيّاً ماكانت الحال ، فلسنا نود أن نقبل ما عرف عنه من نظريات نَضَبَتْ ولفظت حياتها ، وانما سنخلص الى مميزات وصفه من خلال دراستنا لنماذج من شعره الوصفي :

نموذج أول ــ العنب الرازقي :

وَرَازِقِيٍّ مُخْطَفِ (١) الحصُورِ كأنّهُ مَخازِنُ البَلّــورِ
لَمْ يُبْقِ منهُ وَهَجُ الحَرُورِ إلاّ ضياءً في ظُرُوفِ نُورِ
لَوْ أنّهُ يَبْقَى عــلى الدّهُورِ قَرّطَ آذانَ الحِسانِ الحُورِ
لَهُ مَذاقُ العَسَلِ المَشُورِ وَنَكْهَةُ المِسْكِ مَعَ الكافُورِ
وبَرْدُ مَسّ الخَصِرِ المقْرُورِ
باكَرْتُهُ والطّيرُ في الوُكُورِ وعُذْرُ اللّذّاتِ في البُكُورِ
بِفِتْيَةٍ مِنْ وَلَدِ المَنْصُورِ أمْلأُ لِلْعَيْنِ مِــنَ البُدُورِ
حَتّى أتَيْنَا خَيْمَــةَ النّاطُورِ قَبْلَ ارْتِفاعِ الشّمسِ للذّرورِ
فانْقَضّ كالطّاوي منَ الصقُورِ بطاعَةِ الرّاغبِ ، لا المَجْبُــورِ
ثُمّ جَلَسْنا مَجْلِسَ الحُبُورِ على حِفافي جَدْوَلٍ مَسْجُورِ
أبْيَضَ مِثْلَ المُهْرَقِ المَنْشورِ أوْ مِثلَ مَتْنِ المُنْصُلِ المشْهورِ
ينْسابُ مِثلَ الحَيَةِ المَذْعُورِ بينَ سِماطَيْ شَجَرٍ مَسْطُورِ (٢)
فنيلتِ الأوْطارُ في سرُورِ
وكلّ ما نَقْضي مِنَ الأمُورِ تَعِلّةٌ عَنْ يَوْمِنــا المنْظُورِ
ومُتْعَةٌ مِنْ مُتَعِ الغُرُورِ

يبدو لنا غب تلاوة هذه القصيدة ، أن الشاعر يعنى في وصفه بموضوع قلما عني به الشعراء العرب ، لأن له في الأطعمة تجربة خاصة ، جعله الحرمان يتحسس بها شديدة ، مبرمة كالجوع في معدته . وليست قصيدة العنب الرازقي هذه سوى إحدى قصائده الكثيرة ، مما وصف به المآكل كالزلابية والموز والدجاج وما إليها .

تلخيص القصيدة وتحليلها :

يبدأ الشّاعر قصيدته بوصف العنب في **شكله الظّاهر**، اذ نراه يسرف في التحديق بحباته بعد ان نضجت وتنوّرَتْ ، فَتَتَخايل اليه شبيهةً **بالبلّور** .

(١) مخطف : ضامر .
(٢) السماط : صف .

هذه النظرة الأولى هي **نظرة نقليّة** ، اي انها تُقرّر الواقع وتَنْقُله نَقْلا فكأنه بذلك عَالِمٌ يَسْتَنْتِج ويلاحظ ممّا يشاهده دون ان يخرج عن حدود العين اللّاقطة والمُلاحظة القريبة . ومن ثمة ينعم بظاهرة الشّفافية واللّمعان في العنب يُعيد ما سبق ، يبالغ به ويعلّلُه ، فاذا **أَلَقُ البلّور** يستحيل مع غلاف العنب الى **نور** يشتمل على **ضياء** . وهو في ذلك يجري على **سنة المُبَالغة** الّتي تَنْزع مما تبصره العين ، الى صورة مثاليّة ، وهميّة أخرى تُوفي به الى المستحيل . فبعد ان رأى العنب بلّورا ، عاد وتمثّله ضياء في ظروف نور ، وانتهى الى مُشَاهدته **لؤلؤة** تُقَرّط آذان الحسان ، متسامياً به الى جوهرٍ من الضياء الصافي والاشراق . ولعل هذا الدأب يظهر لنا ما تميّز به اسلوب ابن الرومي في الوصف من **عادة استنفاد المعنى على دفعات** ، تُكْمل الواحدة الاخرى ، وَتَتَابع حتّى يستوفي الشاعر جميع وجوهه . **فهو يصوّر الواقع** ، ثم يستعيد الصّورة بشكل آخر ، **ثم يكرر** ذلك بعض الحين ، حتّى يشعر أنه لا يُمْكن ان يقال بعد شيء في المعنى الذي تطرّق اليه .

. . . . . .

وهذا النوع من الوصف لا يُعْدم فيه الخيال ، بل أن له دوراً في تَضْخيم الصّور الّتي التَقطَتْها حَدَقَةُ العَين . **فالخيال لا يتسلّط فيه على الصّورة من خلال النفس وإنما يَشْطر مباشرة إلى العين . فهو** خيال بَصَريّ رحب . ولقد غلب هذا الخيال في الشعر العربي ، وربّما أطْبق عليه ، عامّة ، حتّى ادركه ابن الرومي ، فاعْتَمَدَه وأسْرف به . ان النُزُوع من واقع العنب ، الى مثال الضياء والنور والتلألؤ يمثّل وظيفةَ هذا الخيال الحسّي المُسْتقل عن النفس في شعر ابن الرومي . **فالخيال هنا أشْبه بالحَدَقَة المكبّرة** الّتي ملامح الواقع دُون أن تُشوّهَها أو . وهو أبدا وسيلة لعَمَلية النّقل والنّسخ والمُشابهة الّتي يقوم بها الشّاعر ، والّتي لا تَتَعدى الظاهرة ، ولا تُحَلّكها بليمائها . لا تربط بينهما وبين صُور الضّمير في النفس